

فصل الأول

الحياة

١

في حجر ربة الشعر

حينما بلحأت ربةُ الشعر إلى مصر في القرن الماضي ، تعيش تحت سماها ، وتبعث فيها حياة فنية أصيلة ، يفوح شداها ، ويتأرجح عبيرها على لسان البارودي وما كان ينظم من شعريوقظ النفوس ويحيي القلوب . في هذا الحين انتخبت ربةُ الشعر شوق ، وأهدته إلى مصر سنة ١٨٦٩ وأعدت له كل شيء ليكون شاعراً ممتازاً ، وما زالت تحمله في حجرها ، وترعاه بعنايتها ، حتى تهيأت له شاعريته . وكان أول ما أعدت له ميراث دمه وأعراقه ، فقد جاءت به من عنصر تركي وآخر شركسي ، وعنصر يوناني وآخر عربي كردي ، فتآزرت فيه هذه العناصر ، وأخرجت منه شاعراً ممتازاً ، لعل مصر لم تظفر بمثله في عصورها المختلفة

واشترك هذه العناصر فيه يدل على أنه ليس مصرياً خالصاً ، هو مصري الموطن ، أما الآباء والأجداد فليسوا مصريين ، وأول من نزل منهم مصر جدُّه لأبيه ، وهو الذي سُمِّيَ باسمه « أحمد شوقي » قدم هذه الديار في عهد محمد علي ، فضمه إلى حاشيته ، وكان يحسن العربية والتركية ، ومنه ينحدر إلى شوقي الدم الكردى العربى والشركسى . وتوالت الأيام وهو يتنقل في المناصب العالية حتى أصبح أميناً للجمارك المصرية في عهد سعيد (باشا) . وتوفى وهو في هذه الوظيفة عن ثروة واسعة عاش في ظلها على والد شوقي وشوقي نفسه وجاء بعد هذا الجدُّ إلى مصر جدُّ شوقي لأمه ، فقد دخل البلاد شاباً لعهد إبراهيم (باشا) واسمه أحمد حلیم النجده لى نسبة إلى قرية بالأناضول

٩

تسمى «نجده» فهو تركى . وأُعجب به إبراهيم (باشا) على ما يظهر ، فقر به منه ، وزوجه معتوقة يونانية له تسمى «تمراز» ، أُسرت في حرب المورة ، وهى بنت عشر سنوات ، ونشأت في القصر بين وصيفاته . وما زال يتقلد المراتب السامية في الدولة ، حتى أصبح وكيلا لخاصة الخديوى إسماعيل . وتوفى وهو في هذه الوظيفة ، فنقل إسماعيل مرتبه إلى أرملة .

وقد اجتمعت هذه الأصول المختلفة^(١) ليخرج منها هذا الفرع المونق ، وكلنا نعرف شهرة العرب واليونان قديماً بالشعر والشاعرية ، وإن ازدواج هذين الأصلين في شاعر ليؤذن أن ينال قمة الشعر ، بل أن يبلغ فيه عنان السماء . وليس هذا كل ما أهدته أو هيأته ربّة الشعر لشوق ، فقد هيأت له عينان حاملتان ، أصابت أعصابهما بشيء من الاختلال ، فهما لا تتركزان ودائماً تصعدان في السماء .

وكانت جدته اليونانية مشغوفة به تقوم على تربيته ، وكانت منذ عصر إبراهيم على صلة وطيدة بالقصر ، فدخلت بحفيدها يوماً على الخديوى إسماعيل ، وكان لا يزال في السنة الثالثة من عمره ، ونظر إليه إسماعيل ، فوجد بصره مشدوداً إلى السماء ، لا يسقط على بساط الأرض ولا يتزل إليها ، فطلب بدرة من الذهب ، ونثره على البساط عند قدميه ، فتحول شوق إليه ، وأخذ يجمعه ويلعب به ، فقال إسماعيل لجدته : اصنعى معه ذلك حتى يتعود النظر إلى الأرض ، فأجابت إجابتها المشهورة : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك » فقال : جيئى به إلى متى شئت ، حتى أنثر الذهب تحت عينيه ، فإني آخر من ينثر الذهب في مصر ! .

وفى إجابة الجدة للخديوى إسماعيل ما يحمل أروع الدلالة على شاعرية خصبة كانت مكنتة فيها ، وهى جدته التى حملت إليه الروح اليونانى ، وكانت تحبه وتؤثره ، فكفيلته ، وقامت على تربيته الأولى ، وكانت منعمة موسرة ، تعيش بباب إسماعيل ، فعاش معها الطفل حيث الترف والنعيم وإن في الذهب الذى فتحت ربّة الشعر عيني شوق عليه في سته الثالثة

(١) انظر في هذه الأصول مقدمة شوق للجزء الأول من ديوانه المطبوع في سنة ١٨٩٨

ما يشير في وضوح إلى الجح المترف الذي مكث يتنفس فيه طول حياته ، فقد وضعته ربة الشعر منذ نعومة أظفاره في مهاد من النعم ، وما زالت تدلله في هذه المهاد حتى آخر حياته . وشوق من هذه الناحية نشأ نشأة أرستقراطية ، ليس فيها شيء من الديمقراطية وما يتصل بالديمقراطية من حياة الشعب المصرى ، وسراه يقترب أو يحاول الاقتراب من هذا الشعب ، لكنه على كل حال نشأ في بُرْج ذهبي . وربما كانت الحسنة الوحيدة لهذا البُرْج أنه أتاح له أن يخلص للشعر ويفرغ له ، ولا يشغل باله بشيء سواه .

واختلف شوق منذ الرابعة إلى مكتب الشيخ صالح ، ثم انتقل منه إلى مدرسة المتديان ، فالتجهيزية . وفي هذه المدرسة أظهر تفوقاً ونبوغاً ، فُتُح المجانية مكافأة له ، وتخرج فيها وعمره خمس عشرة سنة ، وقد تيقظت بوضوح فيه موهبته الشعرية ، وأخذ يصوغ بها بعض المعارف الجيواوجية والجغرافية من مثل أرجوزته :

إفريقيًا قسم من الوجودِ في شكله أشبهُ بالعنقودِ

ومن غير شك كان يختلط في أثناء ذلك ببعض العناصر الديمقراطية من الشعب ، ولكنه كان اختلاطاً محدوداً ، إذ كان لا يلبث أن يعود إلى بيئته الأرستقراطية ، فتضعف من شأن هذه الديمقراطية المكتسبة ، وترده إلى أرستقراطيته الأصلية .

وواضح أنه أخذ في تعلمه الطريق المدني ، ولم يأخذ الطريق الديني ، ونحن نعرف أنه كان بمصر حينئذ نوعان من التعليم : التعليم الديني الشرقى في الأزهر وكان خاصاً بالتراث الإسلامى وكان يتأثر بالقرون الوسطى وصورة العلوم فيها من لغة وطب وفلسفة وغير ذلك وهي صورة شاحبة ضئيلة ، والتعليم المدني الغربى في المدارس ، وهو تعليم يستمد من أوروبا ومن كتب العلم والأدب فيها ، وقد بدأ في عصر محمد على ، ثم خمد في عصر سعيد وعباس ، ثم عاد إلى النشاط والازدهار في عهد إسماعيل .

وفى هذا الاتجاه من التعليم المدني الأوربي سار شوقي ، وحينما أتم تعليمه الثانوي ألحقه أبوه بمدرسة الحقوق ، ليدرس القانون ، ووصفه أحمد زكي حين دخل هذه المدرسة ، فقال : « كان في جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتي نحيف ، هزيل ، ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة تقريبا ، فتي بعين متألفة تحقياً ، ولكنها متنقلة كثيراً ، فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية ، وإذا تلفت صوب اليمين فما ذاك إلا لكى يرى يبصره نحو الشمال ، وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة هادئ ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلبسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة^(١) .

وهذه الصورة التى رسمها أحمد زكى لشوقى تؤكد معانى أخرى تتصل بشاعريته ، فهو يلاحظ أنه كان شعلة من الحركة المضطربة المتنافرة ، وهكذا هو فى شطحات بصره ، أما بعد ذلك وفى أعماقه فهادئ ساكن وادع ، وهو مع هذا غافل عما يجرى حوله مشغول بنفسه ، لا يلعب مع اللاعبين ، ولا يلقف الكرة مع اللاقفين .

فشوقى مع إخوانه وزملائه فى الحقوق ، وهو لا يحس بهم ، وكأنما شغلته ربّه الشعر عنهم ، فهو يبحث عنها فيما حوله ، يصوب نظره إليها يمينا ، فلا تلبث أن تزوغ منه فى الشمال ، فيرى به وراءها ، فيجدها قد حلت فى السماء ، فيرفع بصره إليها ، فلا تلبث أن تغيب ، لتبدوله لامعة مشرقة بإزائه . وكأنما كان ذلك يزيد فى تألق بصره ، أو قل كأنما كان شوقى مشغولا عن رفقاته وما هم فيه من لهو ولعب بحركات مضطربة مختلطة متشابكة كانت تأتيا ربّة الشعر من حوله بأجنحتها حين تصطفق ، فتملأ أذنه برفيف وضجيج ، ولا تترك له فسحة ، كى يلم شتات نفسه ، ويندمج فى صحبه ،

(١) ذكرى الشاعرين (حافظ شوقى) طبع مطبعة الرقى بدمشق ص ٣٢٦ .

إذ كانت تأخذ عليه كل طريق .

واستجاب شوقي إليها ، فانعزل عن أخذانه ، ومكث ينتظر ما توحى به إليه ، وما تودعه أذنه وعينه ، من همسات وحركات ورؤى حاملة . وكان النبع في أثناء ذلك يفيض والنور يسيل ، فإذا الشيخ محمد البسيوني البياني أستاذه في اللغة العربية ، وكان شاعراً فصيحاً ، تبهره شاعريته ، ويجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه .

وكان هذا الشيخ يدبج القصائد الطوال في مدح الخديوي توفيق كلما حلّ موسم أو أهلّ عيد . فكان قبل أن يرسلها إلى القصر لتنشر في صحيفة الوقائع المصرية وغيرها من الصحف العربية يعرضها على شوقي ، فما يزال يُصلح له فيها ، فيمحو هذه الكلمة أو تلك ، ويعدّل هذا الشرط أو ذاك ، ويُسقط بعض الأبيات ، وأستاذه مغتبط به فرحاً لصنيعه .

ولجج الشيخ بتلميذه والثناء عليه ، ولم يلبث التلميذ أن سار في الدرب الذي سار فيه أستاذه ، فكان ينشئ القصائد في مديح الخديوي توفيق . وكان قد أنشئ في الحقوق قسم للترجمة ، فانتسب إليه شوقي ، وظل فيه سنتين ، مُنح في آخرها شهادته النهائية .

وبذلك ختم شوقي حياته التعليمية ، وهي حياة أوربية في جملتها ، وكان يلتقى بها تيار من الأزهر ، مثله أستاذه البسيوني ، إذ كان من علماء الأزهر المعدودين . و كفل له تخرجه في قسم الترجمة أن يتقن الفرنسية ، وكأنما كانت ربة الشعر تُرهب بذلك لما سيقوم به في المستقبل من الاحتذاء على بعض النماذج الغربية في شعره .

وإذا كانت دراسته في المدارس جعلته يحذق العربية والفرنسية فإن بيئته الخاصة ، بيئة منزله ، جعلته يحذق التركية . وبذلك كان يحسن لغات ثلاثاً في مطلع شبابه ، وعقدت هذه اللغات في ثقافته ، واصطلحت فيما بينها على تأليف طبيعته .

وخرج شوقي من قسم الترجمة في سنة ١٨٨٧ ، وهو لا يتصف بالشاعر

فحسب ، بل هو شاعر الخديوى توفيق ، فقد نسج على منوال أستاذه البسيوفى فى التقرب إلى القصر وصاحبه ، وأتاح له على مبارك (باشا) فرصة لقائه ، فهتأه بتخرجه ، وهو يستلم أذبال ثوبه ويقبلها . ولم يلبث أن عيّن أباه عليا - وكان مبذراً متلافاً - مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، ثم عينه من بعده .

والإنسان لا يطلع على هذه الفترة من حياة شوقى التى سجلها فى مقدمته للطبعة الأولى من شوقياته سنة ١٨٩٨ م حتى يأسى له ، فقد جار عن قصّد السبيل ، إذ رضى أن يكون موظفاً بالقصر ، وأن يكون تابعاً للخديوى توفيق ، وأن يستندل شاعريته له فى مدائحه ، غير أن ربة الشعر كانت لا تزال ترعاه ، ففكّست عقاله من هذا السجن الذى دخله راضياً مرضياً ، فقد أوحى إلى سجانّه أن يرسله إلى فرنسا ليكمل ثقافته ، فلم يحلّ عليه حوّل فى الوظيفة ، حتى رأى توفيق أن يوفده فى بعثة ، وترك له اختيار ما يريد من العلوم ، فاختار الحقوق أو دراسة القوانين ، لظنه أنها ذات واشجة قوية بالأدب ، وأشار عليه توفيق أن يجمع بينها وبين دراسة الآداب الفرنسية .

وسافر شوقى على نفقة الخديوى ، وكتب إلى مدير البعثة المصرية فى فرنسا ليهمّ به ، فلما وصل إلى مرشيليا رآه فى استقباله ، وأخبره أن الخديوى كتب إليه أن يقضى فى مونبلييه عامين ، وفى باريس عامين آخرين ، والتحق شوقى بمدرسة الحقوق فى مونبلييه . ولما انقضت السنة الأولى حاول أن يعود إلى مصر لرؤية أهله فنعه الخديوى ، حتى لا يضيع من سنواته الأربع فترة بعيدة عن فرنسا ، فظل هناك ، وتوالت عليه الدعوات من رفقاءه الفرنسيين فى المدرسة ، فلبى دعواتهم ، وجاس خلال ديارهم ، يتصفح معالم الحضارة الغربية ولم يكذب ينهى من السنة الثانية حتى أرسل إليه مدير البعثة فى باريس أنه ذاهب مع الطلبة فى رحلة إلى إنجلترا لقضاء أكثر أيام العطلة بها ، وأن الخديوى كتب إليه أن يصطحبه معه ، فسافر إلى باريس على عجل . ومنها سافروا جميعاً إلى إنجلترا حيث قضوا شهراً يتفرجون على لندن وغيرها من المدن هناك .

وفي السنة الثالثة وهو في باريس أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت ، ولما تماثل للشفاء أشار عليه الأطباء أن يقضى بعض أيام تحت سماء إفريقية ، فاختار الجزائر ، ومكث فيها أربعين يوماً ، ثم عاد قافلاً منها إلى باريس ليستأنف دراسة الحقوق ، ولم يفوت مرضه الفرصة عليه ، فقد استطاع أن يحصل على إجازته النهائية في آخر السنة الثالثة ، وظل هناك ستة شهور ، يختلف فيها إلى مسارح باريس ، ثم رجع إلى وطنه ، وهو « نِصْبُوْ فراق ، تهزه إليه الأشواق » .

وليس من ريب في أن هذه البعثة كانت نعمة على شوقي ، وكان ربّة الشعر لم تنسه ، فقد أخرجته من سجنه ، وانطلقت به تطوف أركان البحر المتوسط ، وتملأ عينيه بمفاتن الحضارة في فرنسا وإنجلترا ، كما تملأ عقله وروحه بالمدنية الغربية والآداب الفرنسية ، وهو في أثناء ذلك يتنقل بين موبيليه وباريس ولندن ، ويشاهد المسارح ودور الأوبرا ويقرأ الصحف والكتب القانونية والأدبية ، وقد قرأ لفكتور هيجو ولامرتين ودي موسيه وغيرهم من شعراء فرنسا مثل لافونتين ، وبذلك رأى رأى العين عوالم جديدة في الشعر والحضارة .

على أنه ينبغي أن نعود فنلاحظ أن شوقي لم يخلع عنه في فرنسا القيود التي قيد بها نفسه في مصر ، ونقصد القيود التي قيد بها أجنحته إزاء القصر ، إذ نراه لا يزال يرسل بمدائح في الخديوي توفيق من باريس . وكان الرحلة الطويلة التي هيأتها له ربّة شعره لم تستطع أن تفك عنه الخيوط التي حاكها الخديوي من حوله ، فاستمر يتحجّل في هذه الخيوط ، وكلما نقضت ربّة شعره طائفة منها عاد يغزلها من جديد .

في القصر

رجع شوقي إلى مصر في سنة ١٨٩٢ وكان قد توفى توفيق وخلفه عباس الثاني ، فعين في القصر بقلم الترجمة ، وأخذ يعيش في منزل أبيه بحي الخنفي معيشة رتيبة ، لم يقطعها في أول حياته سوى سفره ممثلاً للحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد في مدينة جنيف بسويسرا سنة ١٨٩٤ وكانت هذه الرحلة فرصة طيبة للشاعر حتى يحتل المناظر الطبيعية البديعة هناك . ولما انفض المؤتمر سافر إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة معرض في إحدى مدنها . ولم ترُج سوق شوقي عند عباس أول الأمر ، ويوضح ذلك داود بركات ، فيقول : « إن الخديوي عباساً كان يهمل شوقي بعض الإهمال لاعتقاده ، بل لأنهم أدخلوا على نفسه ، أن أحمد شوقي شاعر فقط وأنه هو بحاجة إلى رجل سياسي ، لما كان بينه وبين الإنجليز من الكفاح والجلاد ، فاجتمع لإزالة هذا التوهيم من صدره المرحومون : بطرس غالي (وقد كانت به نزعة للأدب والأدباء) وبشارة تقلا (صاحب جريدة الأهرام) ومصطفى كامل . وكان بطرس يطلب من الخديوي أن يسمح له بتوظيفه شوقي في الخارجية بضعف مرتبه الذي كان يتناوله من قلم الترجمة في السراي . وكان بشارة تقلا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير الأهرام ، وتأييداً لذلك وضع شوقي في مكانه من الأدب وإمارة الشعر (١) ، إلى أن قرب الخديوي وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام ، فأولاه ثقته ، وقدمه على جميع رجاله (٢) »

وكنا نتمنى لو أن الخديوي عباساً رضى عن خروج شوقي من القصر ، وأسلمه إلى بطرس غالي أو إلى بشارة تقلا ، إذن لتغير وجه شعره ، ولما عاش

(١) يشير إلى إشادة الأهرام بشوقي حينئذ وتلقيها له بأمر الشعراء .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ٣٦٦ .

من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ حبيس المدائح يتغنى بعباس وأعمال عباس في المواسم والأعياد .

وعبثاً حاولت رَبَّةُ الشعر في هذه الحقبة الطويلة أن تُثبت في أجنحته ريشاً يستطيع به أن يرتفع عن الأرض ويحلق في السماء ، وكان أجنحته لم تكن حينئذ من المثانة والقوة بحيث تحمل هذا الريش ، فقد أصبح شوقى من الطيور الداجنة الأليفة التي لا تستطيع ارتفاعاً ولا تحليقاً في الجو ، والتي تنتظر الحَبَّ يُلْقَى إليها من صاحبها ، فتعيش به هائلة راضية .

ولم تقف المسألة عند حدِّ الحَبِّ ، بل تجاوزته كثيراً ، فإن عباساً قرَّبه منه ، وجعله رئيساً لقلم الترجمة كما جعله موضع ثقته ومفزع مشورته ، وقدمه على جميع رجال حاشيته في القصر ، وبذلك كان نافذ الكلمة مسموع الرأي ، بل أصبح كأنه صاحب الأمر والنهى ، يقصده طلاب الحاجات ، وما أكثرهم ؛ وتَعَسَّوْهُ وجوه الوزراء ومن يطمعون في الرتب والألقاب .

وليس من شك في أن شوقى في أثناء هذه الحقبة من حياته كان يعيش بعيداً عن الشعب ، فهو في القصر أو في برجه العاجي ، لا يفكر إلا فيما يفكر عباس فيه ، وكأنه دَوَّارة الريح ، فهو يدور مع صاحبه حيث دار ، وكان في عباس طموح واندفاع ، فصارع الإنجليز وغازبهم ، ووقف شوقى في صفه يغضب عليهم مع غضبه ، ويرضى مع رضاه .

وعلى هذه الشاكلة كان شوقى يعيش لعباس ، وكان يُقْبَل على من يقبل عليه ، ويُرورُ عن يزور عنه ، فمن ذلك أن عباساً تفقد الجيش المصرى في وادى حلفا ، وانتقد نظام إحدى الفرق ، فنار كرومر ، معتمد إنجلترا في مصر ، وعدَّ ذلك إهانة لكنتشر قائد الجيش ، وطلب الاعتذار . وكان رئيس الوزارة المصرية حينئذ رياض ، فبرأ نفسه لدى المعتمد البريطانى مما صنعه الخديوى ، وما زال بأمره يلحُّ عليه أن يعتذر ، أو يصنع شيئاً من شأنه أن يرضى كنتشر والإنجليز ، فأرسل إلى كنتشر بريقة يحمده له نظام الجيش ! . ووقف رياض يلقي خطاباً بمناسبة افتتاح مدرسة محمد على الصناعية ،

فأشاد باللورد كرومر ، وكفّر بعباس ودولته ، فلما أسفر الصباح طلع شوقى على الناس بقصيدة أنّبه فيها وأنحى عليه بالتعنيف الشديد ، وفيها يقول :

كبيرَ السابقينَ من الكرامِ برغمى أن أنالك بالملامِ
لقد وجدوك مَفْتوناً فقالوا خرجت من الوقار والاحتشامِ
وقال البعضُ كيذك غيرُ خافٍ وقالوا رَمِيَّةً من غير رامِ
وقيل شَطَطتَ في الكُفْرانِ حتى أردت المُنعِمينَ بالانتقامِ
غمرتَ القومَ إطرَاءً وحمداً وهم غمروك بالنعم الجِسامِ
خطبتَ فكنتَ خطباً لاخطيباً أضيف إلى مصائبنا العظامِ
لهجّتَ بالاحتلالِ وما أتاهُ وجرحك منه، لوأخسستَ، دامِ
وما أغناهُ عمّن قال فيه وما أغناكَ عن هذا التّراى
أحبّتكَ البلادُ طويلَ دهرٍ وذا ثمنُ الولاءِ والاحترامِ

وأى مصيبة على أمة أكبر من أن يخونها أحد بنينا وأفلاذ كبدها، ويرتمى فى أحضان المحتل الأجنبي ، لا يرعى فى ذلك ذمة ولا عهداً ولا وطناً ، وإنما يرمى النعم الجسام التى تملأ صدره وبطنه ناراً . ومع ذلك فشوقى لم يغضب لوطنه ، ولم يغضب لشعبه ، وإنما غضب لأمره ، فلم يكن يفهم حيثنذ حق الفهم سوى سلطانه ، ولم يكن يدور بخلده سوى القصر الذى يعيش فيه ، قصر الأسرة العلوية الذى يتربع عباس على أريكته .

وحدث أن نُقل اللورد كرومر من مصر فى سنة ١٩٠٧ فأقيم له حفل وداع وكان الأمير حسين كامل حاضراً ، وخطب كرومر ، وندد بإسماعيل وعصره ، وذم المصريين وحمل عليهم ، لأنهم لم يقدرُوا مِيتنَ الاحتلالِ الإنجليزى ولا ما طوّقهم به! . وكبرتْ كلمات تخرج من فمه! وثار شوقى للأسرة العلوية ، فنظم قصيدة حماسية ، يقول فيها :

أَيَّامُكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَا أَمْ أَنْتَ فِرْعَوْنُ يَسُوسُ النِّيْلَا
 أَمْ حَاكِمٌ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِأَمْرِهِ لَأَسْأَلُكَ أَبَدًا وَلَا مَسْئُولَا
 يَا مَالِكًا رِقِّ الرَّقَابِ بِيَأْسِهِ هَلَا اتَّخَذْتَ إِلَى الْقُلُوبِ سَبِيلَا
 لَمَا رَحَلْتَ عَنِ الْبِلَادِ تَشْهَدَتْ فَكَأَنَّكَ الدَّاءُ الْعِيَاءُ رَحِيلَا
 أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً أَدَبٌ لِعَمْرُكَ لَا يُصِيبُ مِثِيلَا

ومنها :

اليوم أَخْلَفْتَ الْوَعْدَ حَكُومَةً كُنَّا نَظُنُّ عَهْدَهَا الْإِنْجِيلَا
 دَخَلْتُ عَلَى حَكْمِ الْوِدَادِ وَشَرَعِيهِ مِصْرًا فَكَأَنَّكَ كَالسَّلَالِ دُخُولَا
 هَدَمْتَ مَعَالِمَهَا وَهَدَّتْ رُكْنَهَا وَأَضَاعْتَ اسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولَا

ويذكر شوقي أعمال محمد علي وإسماعيل ، ويغضب غضبة قوية للأسرة ، وهو في غضبه لا يستمد من الجدوة الكبيرة الهائلة ، جذوة الشعب ، وإنما يستمد من جذوة ضعيفة ، هي جذوة الأسرة العالوية

وهذا طبيعي فقد كان يعيش حينئذ للقصر . ولم يكن يعيش للشعب ، ومن أجل ذلك قصر تقصيراً واضحاً في مواقف شعبية كانت تستحق منه أن يتغنى في أثنائها بالآلام الشعب ، بل نجده أحياناً ينسى هذه الآلام التي كان يرتجف لها الشعب كما ترتجف أوراق الشجر في أثناء العواصف . ولعل أوضح ما كان من ذلك موقفه من عرابي بعد عودته من منفاه ، فقد استقبله بقصيدة ، أقل ما يقال فيها إنها هجاء لقائد من قادة الشعب ، ويكنى مطلعها الذي يقول فيه :

صَغَارٌ فِي الذَّهَابِ فِي الْإِيَابِ أَهَذَا كُلُّ شَأْنِكَ يَا عَرَابِي
 ولم يذهب عرابي صاغراً ولا آبَ صاغراً ، بل كان الشعب المصري ،

ولا يزال ، يعدُّه بطلاً في اللذباب وفي الإياب ، ولكن شوق لم يكن يشعر
شعور الشعب ، وإنما كان يشعر شعور القصر ، وكان القصر غاضباً على
عرباني منذ توفيق ، فغضب شوق عليه ، ولم يخجل أن يرى البطل وهو صريع .
ونحن نعرف قصة « دنشواي » القرية المصرية الحزينة فقد مرَّ بها جنود
الاحتلال في سنة ١٩٠٦ وصادوا حمامها الداجن فلما حاول أهلها أن يقنعوهم
بأن لا يفعلوا فعلتهم ظن أحدهم في أثناء ذلك أنهم يريدونه بالسوء ، فجري على
وجهه لا يلوي ، فأصيب بضربة شمس فمات . ورأى اللورد كرومر أن يعاقب
أهل القرية ، فحوكوا محاكمة وحشية . وصلبت طائفة منهم ، وسُجنت
طائفة ثانية وعُدَّت طائفة ثالثة . وغضبت مصر وارت ، وملاً الحقد صدرها
والغيظ قلبها ، ومع ذلك لم يستجب الشاعر لكل هذه الثورة وما انطوى فيها
من غضب وحقد وغيظ إلا بعد مرور عام على الحادث ، إذ نراه ينظم
مقطوعة ، يسميها « ذكرى دنشواي » وفيها يقول :

يا دِنْشِوَايُ عَلَى رُبَاكِ سَلَامٌ ذَهَبَتْ بِأَنْسِ رِبْوَعِكِ الْأَيَّامُ
عَشْرُونَ بَيْتًا أَقْفَرَتْ وَانْتَابَهَا بَعْدَ الْبِشَاشَةِ وَحَسَنَةُ وَظَلَامُ
بَالَيْتِ شَعْرِي فِي الْبُرُوجِ حِمَائِمُ أَمَّ فِي الْبُرُوجِ مَنِيَّةٌ وَحِمَامُ
نِيْرُونَ! لَوْ أَدْرَكْتَ عَهْدَ كَرْوَمِرٍ لَعَرَفْتَ كَيْفَ تُنْفِذُ الْأَحْكَامُ
نُوحِي حِمَائِمَ دِنْشِوَايَ وَرَوِّعِي شَعْبًا بِوَادِي النِّيلِ لَيْسَ يَنَامُ

وليس من ريب في أن حادث دنشواي أفضع وأشنع من خطاب كرومر

وتعرضه لإسما عيل وأسرته ، ولكن عند من ؟ عند الشعب ، ولم يكن شوق
من الشعب ، فقد نشأ بباب القصر ، وعاش يجري في إثر أميره عباس ،
فهو لا يحس إلا بما يحسه ، ولا يشعر إلا بما يشعر به ، فليس له إحساس
مستقل ولا شعور مستقل ، وهو لذلك يثور حين يُخَدَّشُ أميره ، ولا يثور
حين يُلْطَمُ الشعب على وجهه .

وشتان بين وقدة عواطف شوقى حين تعرض كرومر لإسماعيل وندد به وبأسرته وعهده ، وحين تعرض كرومر للشعب الأعزل ، ونصب له مقصلته ، وأنزل به سياطه ، وفتح له سجونه . ويكفى أن شوقى نظم في ذكرى دنشواى مقطوعة ، ولم ينظم قصيدة . فنفسه لم تسرسل ، لأنها لم تشعر من أعماقها بالأم الشعب وهمومه .

وكأنى بشوقى نظم هذه المقطوعة رداً على من يلومونه لصمته حيث يجب الكلام ، فلما مرت الفرصة ، ولم يتغنّ البلبل ولم يصدح بأنغام شجية تلامم الموقف ظل يذكر ذلك . حتى إذا دار العام انتهز الفرصة ، ونشر هذه القطعة ليقراها الناس فى الصحف ، لعله يرضيهم . أو لعله يكفر بها عن سكوته السابق . ولا بد أنهم دهشوا— كما ندهش نحن الآن — حين رأوا شوقى لا يلّم بالورد كرومر إلا الإمام النسيم الخفيف ، وكأنه لا يريد أن يسخط الإنجليز ولا أن يغضبهم ، وهى لباقة أو مداورة تعلمها فى القصر من غير شك ، ولكنها لا تحسب ، لأنها تؤذى النفوس الحرة الكريمة .

على كل حال لم تكن هذه المقطوعة تعبيراً عن عواطف متأججة فى نفس شوقى ، وإنما كانت إرضاء للجمهور الذى يقرأ شوقى فى الصحف ، ويقراً مدائحهم فى عباس ، يذبّجها فى عيد ميلاده وفى عيد جلوسه على أريكة مصر وفى مناسبات مختلفة . فهذا الجمهور الذى كان يفكر فيه شوقى ، والذى كان ينشر شعره فى الصحف حتى يقرأه ويعجب به ، هو الذى كان يدفعه دفعا ليغنيه على بعض الأوتار التى تهزه . ومن هذه الناحية ينبغى أن نلاحظ شيئاً من التطور فى شعرنا الحديث عند شوقى وغيره ، إذ أخذ هذا الشعر بوجه للجمهور بفضل المطابع وشيوع الصحافة والصحف ، وبذلك أصبح الشاعر يفكر فى إرضاء قرائه ، فهو لا يشعر لنفسه فحسب ، ولا لأمرائه فحسب ، كما كان يصنع الشاعر القديم ، بل هو يشعر أيضاً للجمهور الذى يقرؤه ، فهو مضطر أن يتحدث إليه فى همومه وأحزانه ، كما يتحدث إليه فى مسراته وأفراحه . ومن هنا يضطر شوقى لإرضاء لجمهوره من الشعب

المصرى أن يغنيه بعض متاعبه وآلامه ، وأن لا يظل جامداً في الحادثة الكبرى تمرّ به ، بل يتحرك معه ويشاركه ، وإذا أفلتت منه الفرصة على نحو ما أفلتت منه في حادثة دنشواى أخذ يتحين الوقت الذى يدخل فيه ثانية إلى الشعب ليشاركه في أُنْبته وعذابه ، حتى يقع منه موقع رضاً واستحسان.

فشوقى ينهض بذلك مصانعةً للشعب لا عن عقيدة ولا عن إحساس حقيقى ، وإنما هى مصانعة لا غير ، يأتيها موظف القصر الذى تمضى حياته كلها في مصانعات ، فهو يصانع هنا وهناك ، وهو يسلك طرقاً مستقيمة حيناً وملتوية حيناً آخر ؛ ليصل إلى ما يريد من تحقيق بعض أغراضه السياسية . وفي الوقت نفسه كان شوقى سجين القصر ، يعيش في التواءاته ومداوراته مع الإنجليز أحياناً ومع الشعب أحياناً ثم مع من يريدون الرتب والألقاب أو الجاه والمناصب أحياناً أخرى . وكان لا يترك القصر إلا ليجلس إلى أسرته الأرسقراطية أو مع من يشاكلونه من الأغنياء ، ولم يكن يجلس إلى الشعب ، ولا يختلط بأوساطه وأنماطه ، فطبعى من أجل ذلك كله أن لا يكون بوقاً للشعب ، وإنما يكون بوقاً للقصر وأميره ، يتكلم حين يريد هذا الأمير ، ويصبيه الخرس حين يريد . لم يكن شوقى يعيش حيثنذ حراً لنفسه ، وإنما كان يعيش عبداً لأميره ، وربما كان من أبلغ الدلالة على ذلك موقفه من صديقه مصطفى كامل حين توفى ، فإنه لم يسارع إلى رثائه ، لأن مصطفى كان قد قطع علاقته بعباس حين وجده يتبع سياسة وفاق مع السير غورست معتمد إنجلترا ، ووجه إليه على صفحات الصحف كتاباً مفتوحاً . فلما هصر القدر غصن مصطفى المورق الفينان ، صديق شوقى ورفيقه^(١) ، وقلب الوطن الخافق وفؤاده النابض ، تلكاً شوقى قليلاً عن بكائه ، ثم تاب إلى صوابه . ولعل أجمل مرثيه فيه قصيدته :

المَشْرِقَانِ عَلَيْكَ يَنْتَجِبَانِ قاصيهما في ماتمِّمِ والدَّانِي

(١) انظر في صداقتهما كتاب « أبى شوقى » لحسين شوقى ص ١٣٣ .

والقصيدة رائعة من حيث الصور والصياغة ، وما يتخللها من عظات
وحكم يُطيلُ فيها شوقي من برجه العاجي أو الذهبي على الدنيا من حوله ،
وكان شوقي لا يبكي مصطفى كامل روح الوطن وشعلته الملتبئة ، وإنما يبكي
مصطفى كامل الشخصَ وخلقه ودعوته إلى العلم الشريف ؛ ويتسلل من ذلك
إلى شئون الحياة والموت ، وينظم مثل هذا البيت :

دَقَاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لَهُ إن الحياةَ دقائقٌ وثوانى

وكل ذلك لأن شوقي كان يخاف الخديوي ويخشى سخطه ، وهو في الوقت نفسه يريد
أن يُرضى الجمهور وأن يرضى الشعب الذي يقرؤه ، فيحاوره ويداوره ، وتخرج
القصيدة على هذه الشاكلة من الحديث في فلسفة الحياة والموت ، وإن
تركهما فإلى الأخلاق وما يتصل بالأخلاق . أما سيرة مصطفى كامل ، وأما
خدماته الوطنية ، وأما تعلق المصريين به ، فكل ذلك يوضع عليه ستار ،
ويغشاها ضباب .

شوقي شاعر القصر ، وهو لا يهتم بالجمهور ولا بالشعب إلا حين يجد
القصر راضياً عن ذلك ، وقلما كان يرضى القصر ، فالقصر مشغول بنفسه ،
وشوقي مشغول به وبالخديوي ، يمدحه في كل مناسبة : في العيد ، وفي ذكرى
جلوسه على عرش مصر ، وفي ميلاده وحجته وزيارته . وهو يوجهه حيث يشاء ،
ويتجه معه شوقي حيث يريد ، وكأنه ليس له إرادته ، فإرادة أميره هي العليا ،
وهي التي تحركه ، وتقذف به كالكرة يمينا وشمالا ، تقذف به في وجه
الإنجليز وفي وجه اللورد كرومر ، وتسترده لتبعته روحاً وريحاناً إلى السلطان
عبد الحميد صاحب الأمر في تركيا . ومن هنا تحتلُ التركيات في ديوان
شوقي في أثناء هذه الحقبة التي قضاها في القصر مساحة ومدى أوسع جداً مما
تحتله مصر وحوادثها الجسام ، لا لسبب ، إلا لأن شوقي لم يكن يحسُّ مصر
وحوادثها ، ولم يكن ملك نفسه وإنما كان ملك أميره ، وقد أراد له أميره أن
يولي وجهه نحو تركيا ، فأدار وجهه إلى القبلة وأخذ يرسل بترتيلاته وأناشيده .

وعباس إنما كان يريد من ذلك أن يستدرّ عطف الخليفة الذي يتبعه ، حتى يعينه ضد خصومه الإنجليز ، وحتى يرضى عنه وعن سياسته ، فانطلق شوقي كالمسّهم ، يتغنى بالخليفة والخلافة كما يتغنى بالترك في كل مناسبة. وله فيهم قصائد رائعة حين ينتصرون مع الروس في البلقان وحين يهزمون . ومن طريف ما له من ذلك قصيدته أو موشحته « الأندلس الجديدة » في الحرب البلقانية ، وفيها صور تالد الترك الحربى وتأسى على المسلمين في البلقان ، واستخرج من هذا الوتر الحساس نغماً بديعاً . وله في الانقلاب العثماني الذي أودى بالسلطان عبد الحميد قصيدته المشهورة :

سل يلدِزًا ذاتَ القصورِ هل جاءها نَبأُ البدورِ

وقد نَحَا على الخليفة باللائمة ، لأنه لم يَرَعِ حق شعبه في الدستور ، ولم يَسُسْ أمته سياسة حكيمة ، ثم أخذ في تهنة الجيش وزعمائه : أنور وشوكت ونيازی .

وعقد شوقي الصلة بينه وبين محمد رشاد الخليفة الجديد . كما كان يعقدها بينه وبين عبد الحميد . وتظهر في قصائده التركيات هذه كلها عاطفة وثيقة نحو الترك . وقد يرجع هذا في بعض أسبابه إلى الأصل التركي الذي جرت دماؤه فيه ، ولكن ينبغي أن لا ننسى عباساً دائماً ، فهو الذي كان يدفعه يميناً وشمالاً ، وكان عباس مخلصاً لتركيا ، وكان يزورها في الصيف ، فكان شوقي يخلص لها أيضاً . وكان يزورها معه ، وتتملّى عينه بمجالى البسفور وغيره من مثل « جكسو » وهو موضع فاتن في ضواحي الآستانة ، وله فيه قصيدته التي يفتتحها بقوله :

تحيّة شاعِرٍ يا ماء جكُسو فليس سواكَ للأرواح أنُسُ

وفيها يصف زوارق البسفور ومواطن الجمال فيه ، ولشوقي حاسة رائعة في الوصف والتصوير . لازمته طوال حياته .

على كل حال تركيبات شوقي أثر من آثار عباس ، ولفتة من لفتاته التي كانت تغمر شاعرنا ، وتكتسحه اكتساح السيل ، فقد كان يحس في أعماقه أنه شاعر الخديوي أو شاعر الأمير ، وفي ذلك يفاخر معاصريه ، فيقول لهم إنه :

شاعرُ العزيزِ وما بالقليلِ ذا اللقبِ

وكان هذا اللقب كل ما يتمناه شوقي ، وقد تبعته نفسه ، وهو لا يزال شاباً يدرس الحقوق في مصر وفرنسا . وتبعته وهو موظف في القصر ، فهو أمنيته في شبابه وفي كهولته .

فلم يكن لشوقي من رغبة إلا أن يكون ظلاً للأمير ، وربما كان لفساد الحياة السياسية في مصر حينئذ أثر في توجيه شوقي ، فقد نشأ وهو يرى القصر والأمر كل شيء في حياة المصريين ، فهما مصدر العز والذل ، والخصم والرفعة ، وإلجاء والسلطان ، فأراد شوقي أن يقتحم هذا الحصن الأشم ، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجري في مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية ، وفيه إيمان بالشعب وعمل صادق على إرضائه ، لكانت أحلام شوقي غير هذه الأحلام ، ولما رأيناه يجري منضوياً تحت لواء الأمير يسبح بحمده آتاء الليل وأطراف النهار .

الظروف السيئة التي أحاطت بشوقي إذن هي التي ضيق حدود شاعريته وجعلتها محفوفة بالأشواك في هذه الحقبة الطويلة من حياته التي تجاوزت عشرين عاماً ، فلم يعد شوقي يملك نفسه . بل أصبح يملكه الأمير كما يملك أي شيء من ثروته .

وليس من شك في أن عباساً لم يحسن ملك شوقي ، فقد سخره لنفسه ، وكان ينبغي أن يسخره لفنه ، وأن يقف منه موقف ملوك أوربا من شعرائها ، على نحو ما وقف أغسطس قديماً من فرجيل ، وعلى نحو ما وقفت حديثاً إليزابيث من شكسبير ، ولويس الرابع عشر من معاصريه . وقد تعلم عباس في

«فينا» عاصمة الفن والفنانين ولو أنه قرأ تاريخ عباقرتها الموسيقيين : هايدن وموزارت وبيتهوفن لعرف أن أسرة هابسبورج كفلت لهم حياتهم الفنية كما أرادوها ، ولم تجعل منهم تابعين ولا خدماً لها ، بل أحنت رءوسها لهم وأبدت لهم بكل ما استطاعت من مال وجاه .

وكان ينبغي لعباس أن يصون كرامة شوقي وأن يمده بالمال الذي يريده ، حتى يتفقد هذا القبس المبارك في شاعره؛ إذن كنا نعد عباساً حامياً للآداب في عصره ، ولكنه لم يصنع ، ولم يحاول ، بل استمر يشدُّ البلبل من خيط في لسانه ليمتلقه ويدهنته ، ويغنيه بما يشاء ويهوى .

وفي أثناء ذلك كان يصدح بأنعام رائعة كانت خليقة بأن تنبه له أميره ، وهل أروع في تاريخ شعرنا المصري من ملحمة شوقي التاريخية التي صاغ فيها تاريخ وادي النيل من القراعنة إلى محمد علي والتي ألقاها في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ ؟ وهل أبدع في تاريخ هذا الشعر من قصيدة النيل ؟ وكأن عين الأمير لم تكن عيناً كبيرة ، أو كأنما كان عليها غشاوة ، ولم يكن هناك أمل في أن تنجاب الغشاوة.

فظلَّ صوت الشاعر يتقطع ، ولم يستطع أن يمده حيث ينبغي أن يتمد ، ولم يستطع أن يعبرَ به نوافذ القصر ، ولا أن يخرج به عن صورة المديح إلا قليلاً ، فظلَّ صوتاً ضعيفاً شاحباً ، فيه جمال ، ولكنه جمال الأسير ، وفيه روعة ، ولكنها ليست روعة البحر الضاري ، وإنما روعة النبع الضئيل .

وكان النبع كثيراً ما تفيض جوانبه وتتدفق مياهه ، فكان الشاعر يهدر بتاريخ مصر أو بالنيل أو بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان لا يلبث أن يهدأ أو أن يحجف معينه ، فيعود إلى سيده ، يغنيه على قيثارة المديح ما يهوى من حمد وثناء وملتق ودهان .

ومعنى ذلك كله أن شوقي لم يكن يفرغ لنفسه في أثناء وظيفته في القصر ، فكان شعره دائماً لأميره ، وقلما نظم شيئاً لنفسه ، فنفسه تجرى في إثر مولاه ، وهو عنها لاه ، لا يكاد يردُّها إليه إلا في الحين البعيد بعد الحين ، ومن يدرى ؟

لعله لم يكن يريد لها أن ترتدَّ من هذا الطريق الذهبي الذي تهوّل فيه . ومع ذلك فقد كان شوقي يسترد نفسه أحياناً قليلة ، وكان يتغنى لها حيثنذ بما فهمه أدق الفهم في حياته الأرسقراطية المترفة وفي أوروبا في أثناء دراسته من تلك الحضارة المادية التي تدفع دفعا إلى شيء من اللهو والحمر . وظهر أثر ذلك في بعض شعره قبل سفره إلى أوروبا وبعد مجيئه ، ومن نماذجه قصيدته :

حَفَّ كَأَسْمَا الْحَبَبُ فِيهِ قِضَّةٌ ذَهَبُ

وقصيدته :

رمضانٌ ولى هاتِها يا ساقى مُشْتاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتاقِ

وطبيعى أن يغنى شوقي لنفسه مثل هذين الصوتين ، فقد كانت حياته مترفة ترفاً خالصاً ، إذ أتاحت له وظيفته في القصر وجوائز الأمير كل ما ابتغى من ثراء ، وتصادف أن تزوج بسيدة ثرية^(١) ، فأعانه ذلك كله على أن يعيش كما يريد من حيث الترف والبذخ واللهو . ويكنى أن نقرأ في كتاب ابنه « حسين » وصف داره^(٢) التي اختطها في ضاحية المطرية مستقلاً إليها من داره بحى الخنق ليكون قريباً من قصر أميره « قصر القبة » وهى التي سماها « كومة ابن هانى » ونطّل على ما كان بها من الأثاث ومئات الطيور الملونة واللوحات والغرف البيجة ، لنعرف كيف كان يعيش شوقي معيشة كلها لذة ومتاع .

وإذن فشوقي كان في معيشته الخاصة أو معيشته الداخلية يأخذ غير قليل من الحرية ، فلم يكن هناك القصر ، ولم يكن هناك خيط سيده الذى يشدُّ لسانه ، ولم يكن هناك الجمهور الذى يطّلع على سرائره ، إنما كان هناك شوقي وحده وثرأؤه وترفته وحفلاته وما يريد من خمر ولهو .

وشوقي في ذلك كله يخالف سمى الوقار الذى يصطنعه في القصر وفي

(١) ذكرى الشاعرين ص ٣٣٠ .

(٢) أبى شوقي ص ٣ - ١٨ .

لقاء الناس وعلى واجهات- الصحف ، وهذا طبيعي في الفنانين والناس جميعاً أن تكون لهم شخصية فردية وشخصية اجتماعية ، فليس من الضروري دائماً أن يكون ما يواجهه الفنان به الجمهور هو عين ما يواجهه به نفسه . وتوسع المسألة في الفنانين والشعراء ، لأنهم من ناحية يصورون أنفسهم من حيث إنهم أفراد ، ومن ناحية أخرى يصورون مجتمعاتهم وما به من ثغرات ، وقد يسايرون هذا المجتمع ويخضعون ، وقد يتمردون ويشذون عليه ، وهؤلاء هم المصلحون . ولم يكن شوقي مصلحاً ، وإنما كان عبداً لمجتمعه وحياته الخارجية ، فطبيعي أن لا يكون سلوكه الفردي مماثلاً لسلوكه الاجتماعي ، فهو في منزله وحياته الخاصة يشبع مزاجه وميوله ، وهو في القصر والحياة الاجتماعية يشبع مزاج أميره وذوقه ، ويحاول أن يكسب مزاج الجمهور وذوقه ، فيؤلف له أغاني وأناشيد في تاريخه ونيله ، أو في الخلافة والإسلام أو في مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم كقصيدته التي نظمها في سنة ١٩٠٩ والتي قلّد فيها صاحب نهج البردة :

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانَ وَالْعَلَمِ^(١) أَحَلَّ سَفْكَ دَيْمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
والأخرى التي قلّد فيها همزيتة :

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنَاءُ

وقد وقف محمد حسين هيكل عند هذه الناحية في مقدمته للطبعة الثانية من الشوقيات، ولاحظ أن شوقي له شخصيتان مختلفتان في شعره يقول: « وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه كأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع ، يصل من الشعر إلى عليا سماواته ، وأن كليهما مصرى يبلغ حبه مصر حدة التقديس والعبادة، أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر،

(١) ريم: غزال. القاع: الأرض المنبسطة المشبية. البان: شجر. العلم: جبل.

أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان ، مسلم يقدر أخوة المسلمين ، ويجعل من دولة الخلافة قدساً تفيض عليه شئونه وحوادثه وحى الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها ، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معني ولكل فكرة ولكل خيال . والآخر رجلٌ دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها ، متسامح تسع نفسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله ، ساخر من الناس وأمانيمهم ، مجدد في اللغة لفظاً ومعنى . وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر .

واستطرد هيكمل يفرق بين عناية شوقي بهاتين الناحيتين في الحياة وعناية أبي نواس بهما ، إذ تلقى في شعره مثل قوله :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقَلِّ لِي هِيَ الْخَمْرُ
وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمُكِنَ الْجَهْرُ

وقوله :

إِذَا أَمْتَحَنَ الدُّنْيَا لِسَبِّبٍ تَكشَفَتْ لَهُ
عَنْ عُدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

ويزعم هيكمل أن هناك فرقاً في معالجة كل من الشاعرين للناحيتين ، فأبو نواس صاحب لهُو ومجون وخمر ، والحكمة عنده عارضة ، تأتي صدفة واستثناء ، أما شوقي فالصورتان متوازيتان عنده ، تستقل كل منهما عن صاحبتها ، فكل منهما جوهرية في شعر الشاعر وروحه ، وكل منهما قائمة في لبّ ديوانه وصميمه. ولسنا ندرى ماذا يريد بالشخصيتين المختلفتين تمام الاختلاف ، أما إن أراد ما يشيع في هذه الأيام بين النفسيين عن قصة « دكتور جيكل ومستر هايد » وهما شخصيتان لشخص واحد ، تختلف كل منهما في تصرفها عن الأخرى تمام الاختلاف . فإنه يكون مبالغاً ، بل يكون مخطئاً ، إذ أن المعروف بين النفسيين أن كلا من الشخصيتين لا تدرى عن الأخرى أى شيء من تصرفها، واختلاف شخصيتي شوقي ليس من هذا النوع النفسى قطعاً ، إنما هو اختلاف عادي، كما قدمنا، نجده عند كل الفنانين أو عند كثير منهم ، ممن عرفنا حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية . وليس بصحيح

أن شوقي يختلف في ذلك عن أبي نواس ، فإن الشاعر العباسي كان يكثر من الخمر وشعر اللذة حقاً ، ولكنه كان ينظم في شعر الزهد والحكمة ، وتفسير ذلك بسيط ، وهو أنه كان يطلب اللذة والمتاع ، وكان يفكر فيهما وفي نفسه وحياته ودينه ، فكان ينتفض ، كما ينتفض العصفور بلله القطر ، إذ يرى الحياة لا تدوم ولا تبقى لأحد .

فأبو نواس في لوه وحكمته ليس أكثر من شاعر يطلب اللذة ، ثم يفكر في عواقب اللذة ، وما يصادف صاحبها بعد حين من حرمان . فحكيمته وزهده كل ذلك ناجم عن خره ولذته ، وليس هناك تضارب في شخصيته ولا تخالف ، ولا ما يصح أن تفسره بالصدفة العارضة . على أننا إذا أخذنا نبأ نواس جاداً بين وجدناه ينحلُّ من حيث النظرة العارضة إلى شخصيات متخالفة ، فهناك أبو نواس الماجن ، والآخر الزاهد؛ والثالث الرسمي الذي يمدح الخلفاء ويغشى مجالسهم ، والرابع الذي كان يغشى حلقات الدرس والعلماء من المعتزلة واللغويين وغيرهم .

والحقيقة أنه ليس في شخصيات أبي نواس تعدد ولا اختلاف ، وإنما هي حياة الفنان حين يخلص إلى نفسه ويعيش معيشته الداخلية ، والفنان حين يخرج إلى المجتمع ويتصل بتزعاته وأذواق الناس فيه ويعيش معيشته الخارجية . وهذا نفسه ما نلاحظه عند شوقي ، فليس هناك تعدد في شخصيته ، وإنما هي حياته الفردية وما يتصل بها من لذة ومتاع وحرية ، وحياته الاجتماعية وما يتصل بها من القصر والحديوي والجمهور وتزعاته ، ولا خلاف بين الحياتين أو تخالف ، وإنما هي خصال شوقي وصفاته .

على أنه ينبغي أن لا نرسل هذا الكلام لإرسالاً ، فإن حياة شوقي الخارجية كانت تَسْرُ دأماً حياته الشخصية الداخلية ، فما في ديوانه عن لذته ومتاعه قليل قلة شديدة ، وكأن حياته الرسمية كانت تغطي أعشابها النبع كله في هذه الحقبة من حياته ، فكان من العسير أن تظهر مسارب لوه . ولذلك يغلو هيكل حين يقيم المجموعتين من الحياة أو من الخصال متوازيتين مستقلتين ،

فإن الحصول الماجنة لا تكاد تظهر عند شوق إلا ظهوراً باهتاً ضئيلاً نحيلاً ،
وكان حياة شوق الشخصية وخصاله الالهية تبعثت في خضم الحياة الخارجية
التي عاشها في القصر وعلى صفحات الصحف .

٣

في المنفى

لم يكن من الممكن أن تنفذ ربة الشعر شوق من هذا المعتقل الذي حُبس
فيه وحُبت شاعريته معه إلا أن تلم بمصر أحداث كبرى، تنزعه في أثنائها
من أحضان هذا السجن الذي كان محبباً إليه. ولم تلبث الأحداث أن آلت
حين أعلنت الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ وكان عباس غائباً عن مصر
بتركيا ، فأعلنت إنجلترا حمايتها على الوطن ، وأبت على عباس أن يعود إليه ،
وأقامت مكانه السلطان حسين كامل ، وأخذت تحول بين حاشية عباس
وبين القصر ، وخاصة ذوى الرُفقة والحظوة الأولى منهم .

وكان شوق في مقدمة من يعد المحتل حركاتهم ويراقب خطواتهم، وكان
يُظهر وفاء للعهد القديم ، فهو يحب عباساً ويؤثره على حسين، ولكن الظروف
تغيرت ، ولا بد له من المداورة ، فصاغ قصيدته :

أَأخُونُ إِسْمَاعِيلَ فِي أَبْنَائِهِ وَلَقَدْ وُلِدْتُ بِبَابِ إِسْمَاعِيلَا

وفيها تظهر نفسيته المضطربة، فبينما يحاول أن يرضى حسينا نراه يقول (إن
الرواية لم تتم فصولاً) مشيراً إلى أن الإنجليز لا يزالون يبيتون شراً بالأسرة
العلوية . وثاروا لهذا التذير ، وأوجسوا خيفة من تأثير شعره في نفوس المصريين
فأمروا بنفيه من البلاد ، واختار الأندلس مقاماً له .

ورفعت السفينة سلاسلها من بور سعيد ، وألقت بشوق وأسرته على ساحل
إسبانيا في برشلونة ، فنزل في فندق فيها ، ثم أقام في ضاحية جميلة من ضواحيها

تُدْعَى « فلقد ريرا » ، وهى ترتفع كثيراً عن سطح البحر ، فكان يتمتع بهذا الارتفاع ، وبما حوله من غابات الصنوبر ومشاهد الطبيعة الرائعة ، كما كان يتمتع برؤية البحر ، والسفن غادية رائحة على برشلونة ، وإلى ذلك يشير فى سينيته ، إذ يقول :

مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاحِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ

وعلى هذا النحو لم يعد شوق يَحْيَى حياته الرتيبة التى كانت تبدأ من كرمة ابن هانى إلى القصر ، ثم تعود أدراجها من القصر إلى كرمة ابن هانى ، فهذه الدورة من حياته قد دخلت فى عالم الظلال إلى غير رجعة ، وخلقتها دورة جديدة ، انتقل فيها الشاعر إلى عالم النور حيث لا ترهقه قيود القصر وأغلاله ولا أفاعيه وسمومه .

ومع أن هذه الدورة الجديدة كانت فرحة هنيئة لربة الشعر فإن شوق لم يستقبلها بالفرح ، بل استقبلها بالحزن والألم لفراق الوطن وقلة المال وتعذره أحياناً بسبب الحرب. ولم يكن شوق يعرف قبل ذلك الحزن، فقد كانت حياته تجرى على وتيرة واحدة من اللهو والمرح ، فلما حيل بينه وبين عشه أحس بغير قليل من الألم ، بل أخذ يصهر الألم نفسه ، وكما كان شعرنا المصرى الحديث محتاجاً إلى أن يصهر الألم نفس شوق ، حتى تصبح نفساً غنية ، وحتى يقرب شوق من جمهور وطنه ، وما يكتنظ به صدره من هموم .

فليحزن شوق ، ليحزن من غربته ، وليحزن لمضايقة الإنجليز له فيما يرسل إليه من أمواله ، وليحزن على عشه فى كرمة ابن هانى ، وليحزن على وظيفته فى القصر ، وليحزن على ما أصاب أميره عباساً ، وليحزن لهذا النقي والتشريد ، فى كل ذلك أحلام جديدة ستحقق لشعرنا المصرى ، فقد أصبح أمير هذا الشعر منكوداً . ولا يزيد ذلك ربة الشعر إلا فرحاً على فرح ، فإن صوت شوق يتكامل له اللحن ، فقد كان البلبل ، من قبل ، أسيراً ، وكان لا يبنى إلا مديحاً متشابهاً فى أغلب أحواله ، ولم يكن يعرف شيئاً من محن

الحياة وآلام الناس . فالآن تم له نفسه الشاعرة ، والآن يم له صوته ، فقد أحسَّ الحياة من طرفها : اللذة والألم ، والنعم والحرام .
وظل الشاعر في « فلندريرا » حتى أعلنت الهدنة في سنة ١٩١٨ فأصبح من حقه أن يتجول في إسبانيا كما يشاء ، فتنقل بين مدنها الكبيرة ورأى مجد العرب الدائر في قرطبة وإشبيلية وغرناطة . وذهب بيكيهم ويكي نفسه في قصيدته السينية المعروفة ، وقد بدأها بحنيه إلى وطنه ، يقول :

اختلافُ النهارِ والليل يُنبئني اذْكَرًا لى الصِّبَا وأيامَ أنسِي
وسلامِصر هل سلا القلبُ عنها أو آسَا جُرْحَه الزمانِ المومئِي
أحرامٌ على بلابله الدَّو حُ حلالٌ للطير من كل جنس
وطنى لو سُغِلتُ بالخلدِ عنهُ نازعتنى إليه فى المخلدِ نفسِي
شهد الله لم يغبُ عن جفونِي شخصه ساعةً ولم يخلُ حسِي

واستطرد يتحدث عن الجزيرة والنيل والحيزة والنخيل والأهرام ، وعرض للتاريخ وعبره وما يُطَوَى فيه من تحول الدهر وفناء الدول ، كل ذلك ليصل إلى غرضه من قصيدته ، وهو وصف الأندلس والحديث عن دولها . وقد صور قصر الحمراء بغرناطة تصويراً دقيقاً ، حتى كأننا نشاهده لدقة تصويره ، ووقف يتأسى على خروج العرب من الأندلس ، ويذكر دخولهم وكيف جاءوا إليه فى سفن كأنها الأرائك ، ثم خرجوا منه على سفن كأنها اللهود :

ركبوا بالبحار نَعشاً وكانت تحت آباتهم هى العرشُ أمس

ومن يقرأ هذه القصيدة يرى شوق فدحاز لنفسه ثقافة تاريخية عميقة بالأندلس وأمجاد العرب فيها وحضارتهم ونهضتهم بقرطبة حتى كانت منارة أوربا لأواخر عصرها الوسيط . ولم يكتف شوقى بالتعمق فى قراءة تاريخ العرب فى الأندلس فقد عنى أيضاً بقراءة شعرائهم ودواوينهم .

وكانت أوقات الشاعر فارغة لمدة خمس سنوات ، فقرأ كثيراً عن الأندلس ، وملاً وعَنيهِ ولاوعيه بتاريخ أبطالها وشعرائها، فبدأ يكتب قصة «أميرة الأندلس» أو أخذ يعدُّ نفسه لكتابتها، واختار لها حياة المعتمد بن عباد وزوجته الرميكية ، وكلُّ من يتصل بالأندلس يعرف أن القطعة الأرجوانية للحياة الدرامية في الأندلس هي نفس هذه القطعة التي انتخبها شوقي ، فإن حياة ابن عباد لا يسمعا شخص مسرودة ، إلا ويرى فيها قصة رائعة .

وأخذ شوقي يتعمق في قراءة الشعر الأندلسي ، ويظهر أنه أعجب بابن زيدون إعجاباً خاصاً ، وربما كان في ذلك دليل على تعديل حدث في القيثارة ، فقد كان شوقي لا يهيمه الشعر الوجداني ولا أصحابه قبل ذهابه إلى الأندلس . كانت أكثر صلته بالمتنبي أهم شعراء المديح بين العرب السابقين ، وهذا طبيعي لأنه يتفق وذوقه في الشعر الرسمي الذي كان يصنعه . أما في الأندلس ، فلم يعد الشاعر الرسمي المعروف ولم يعد في حاجة إلى قراءة المتنبي وأمثاله من الرسميين ، ولذلك رأيناه يتعلق بابن زيدون ويحاول أن يعارضه في قصيدته النونية المشهورة التي يبيت فيها حبه وحنينه إلى : «ولادة» قرة عينه، فينسج على منواله قصيدة بديعة له، وفيها يقول :

لكنَّ مِصْرَ وَإِنْ أَغْضَتْ عَلَى مِقَّةٍ ^(١)	عَيْنٌ مِنَ الْخَلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِمُنَا	وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا ^(٢)
مَلَاعِبٌ مَرِحَتْ فِيهَا مَارِبُنَا	وَأَرْبَعٌ أُنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا
يَا مَنْ نَعَارُ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَمَائِرِنَا	وَمِنْ مِصُونِ هَوَاهُمْ فِي تَنَاجِينَا
نَابَ الْحَيْنِ إِيَّاكُمْ فِي خَوَاطِرِنَا	عَنِ الدَّلَالِ عَلَيْكُمْ فِي أَمَانِينَا
جِئْنَا إِلَى الصَّبْرِ نَدْعُوهُ كَعَادَتِنَا	فِي النَّائِبَاتِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِأَيْدِينَا
وَمَا غُلِبْنَا عَلَى دَمْعٍ وَلَا جَلْدٍ	حَتَّى أَتَتْنَا نَوَاحِمَ مِنْ صَيَاصِينَا ^(٣)

(١) مقة: محبة. (٢) رواقينا: راقباتنا من السحر. (٣) الصياصي: الحصون.

ونابغى^(١) كأن الحشر آخره
 نطوى دُجَاهَ بجرحٍ من فراقكمُ
 تُمَيِّنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمْ وَتُحِينَا
 إِذَارَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرَقَا مُحَاجِرُنَا
 بِكَادٍ فِي غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
 حَتَّى يَزُولَ وَلَمْ تَهْدَا تَرَاقِينَا^(٢)
 حَتَّى قَعَدْنَا بِهَا حَسْرَى تُقَاسِينَا
 لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيزَانًا وَلَا صَعِدَتْ
 وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خَلْقٌ
 فِي مَلِكهَا الضَّخْمُ عَرَشًا مِثْلَ وَادِينَا
 أَرْضُ الْآبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا
 مَرُّ الصَّبَا فِي ذِيولٍ مِنْ تَصَابِينَا

ألم تكن ربة الشعر محقة في فرحها حين خلع شوقٍ عنه الحلة الرسمية ،
 وخرج من الحياة الضيقة التي كان يعيشها في القصر ؟ وهل كان من الممكن
 أن نسمع منه هذا الصوت ونفسه هائلة مغتبطة ؟ لقد أخذ النبع يتفجر تفجراً
 طبيعياً على لسان شوق ، ولم يعد مقصوراً على المديح وما يشبهه . ثاب إلى
 حوادثه ونفسه ، ولم تعد الحياة سارة بهيجة مثل هذه الكأس التي وصفها بقوله :

حَفَّ كَأْسَهَا الْحَبِيبُ فِيهِ فِضَةٌ ذَهَبٌ

بل لقد حَفَّ الكأسَ دموعٌ غِزار وأَنَات طَوال ، واستيقظت روح
 الشاعر بعد سبات عميق ، وأخذت تنظر فيما حولها من عبر التاريخ الأندلسي
 وشموس الدول الغاربة هناك ، وامتد البصر في أعماق تاريخ العرب ، فكتب
 شوقي ديوانه « دول العرب وعظماء الإسلام » .

والتاريخ قطب دائر في شعر شوقٍ منذ كتب همزيتة التي قدمها إلى
 مؤتمر المستشرقين في سنة ١٨٩٤ فليس هذا اللحن جديداً عنده ، إنما الحديد

(١) النابغى: الليل. (٢) ترقا: تكف عن الدمع. التراقي: العظام مما يلي ثغرة النحر.

فيه أنه اختار هذه المرة الدول الإسلامية وعظماء العرب ليكفي أيامهم ، يدفعه إلى ذلك وقوفه على أطلال الأندلس الدارسة .

على كل حال أخذ شوقه يتقرب إلى نفسه في الأندلس بأكثر مما كان يقرب إليها في مصر ، فقد تعود من قبل أن يعيش في الخارج وأن لا يُعنى بنفسه ، فليس في نفسه ما ينبغي أن يعنى به إلا بعض خطرات قليلة في حياته ، أما بعد ذلك فهو لغيره ، يعيش كما يصرفه أميره ، ولا يجد من ظروفه ما يدفعه إلى الإباحة بما في أطواء نفسه . أما في الأندلس فقد تخلص من العالم الخارجي ، وأخذ يحس نفسه المحزونة ويصدر عنها في شعره .

وأشرفت قصة النبي على نهايتها ، وتلكأت السلطات المصرية في استدعائه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وكانت هذه فرصة ليجول في إسبانيا وبين ديار العرب الدارسة هناك . وعفت عنه السلطات فاسافر إلى «جنوا» بجزر ، ومنها ذهب إلى «البندقية» فركب أول باخرة تغادر أوروبا إلى مصر . وخرجت القاهرة لاستقباله ، وبالغ أهلها في الحفاوة به . وكان لذلك تأثير كبير في نفسه .

٤

في الفضاء الطليق

عاد شوقي إلى وطنه ، فوجد أرضه محضبة بدماء الحركة الوطنية الذكية ، ووجد كل شيء فيه يتحول ويتغير ، ولا ندري هل فكر في العودة إلى القصر ؟ ولكن المؤكد أن أبواب القصر لم تفتح له . فظل بعيداً مع الشعب ، يعيش في حياته الجديدة

فلنفرحى ربّة الشعر ، ولتدقّى البشائر ، فإن طائرنا لن يعود رهين عجبسه القديم ، ولا رهين ذهب إسماعيل وأبنائه ، فقد أخذ يرفرف حرّاً طليقاً في الفضاء ، وأخذت أجنحته تلمع فيها ألوان الطيف ، وهي ألوان لم تكن تستمد

من القصر وأميره ولا من حياته الأرستقراطية القديمة ، وإنما كانت تستمد من دماء الشعب التي سفحها راضياً في الحركة الوطنية المباركة سنة ١٩١٩ ومن آماله وآلامه ، وأيضاً من آمال الشعوب العربية جميعاً وآلامها .

أصبح شوقى إلى حد ما ديمقراطياً يعيش مع شعبه والشعوب العربية ، وكان مظهر ذلك في حياته أن أغلق داره أو كَرَّمَتَه في المطرية ، واتخذ له كرمه جديدة في الجيزة . وفرغ لنفسه وحياته الخاصة ، ونزهاته المختلفة في النيل وفي الأهرام ، وفي إحدى نزهاته نظم قصيدته المشهورة :

أبا الهَوَلِ طال عليك العُصْرُ وبلَّغْتَ في الأرضِ أقصى العُمُرِ

وبنى في الإسكندرية بيتاً سماه « دُرَّةُ الفَوَاصِ » وكان كثير الرحلة إليها في الصيف وفي الشتاء . وكان يرحل إلى باريس لرؤية ولديه على وحسين في أثناء تعلمهما هناك ، كما كان يرحل إلى سوريا ولبنان .

وكانت شهرته قد طبَّقت الآفاق ، فأبنا حلَّ أقيمت له الاستقبالات ، وكان بيته منتدى الأدباء والشعراء وكبار رجال عصره . وقد زاره في عام ١٩٢٦ « طاغور » شاعر الهند الكبير ، وقلما يفد على مصر زعيم عربي إلا ويزور الكرمه ، ومن زاروها إسعاف النشاشيبي أديب فلسطين والسيد الثعالبي الزعيم التونسي .

واختير شوقى عضواً في مجلس الشيوخ . وفي سنة ١٩٢٧ أعاد طبع ديوانه الشوقيات ، فأقيمت له بهذه المناسبة حفلة تكريم كبيرة ، بل حفلات ، اشتركت فيها الدول العربية جميعاً بمندوبين ، نثروا رياحينهم ، بل اشتركوا جميعاً في وضع تاج إمارة الشعر العربي ، على مفرقه . ومن ساهم في هذه الحفلات محمد كرد على عن المجمع العلمي العربي بدمشق وشبلى ملاط عن لبنان وأمير الحسيني عن فلسطين وشكيب أرسلان وفندنبرج البلجيكي عن بلده ، وأعلن حافظ باسمه واسم شعراء البلاد العربية البيعة لشوقى :

أمير القَوَافِ قد أتيتُ مبايعاً وهُدَى وفودُ الشرقِ قد بايعتُ معي

وعلى هذه الشاكلة حقق شوقي كل ما كان يطمح إليه من مجد أدبي .
وفي أثناء ذلك كان يتصل بالشعب وحياته الجلدية بعد نهضته الوطنية كما كان
يتصل بشعوب البلاد العربية ، فقد شارك السوريين في ثوراتهم الوطنية
المختلفة وسجل هذه الثورات شعراً رائعاً . ولم يترك فرصة للإشادة بزعم
عربي أو حركة عربية إلا انتهزها ونوّه فيها بآمال العرب وظلم المستعمرين
وما ينالونهم به من عذاب .

وبذلك أصبح أمل الشباب في مصر وسوريا وغيرها ، وأصبح شعره
يردّد في كل مكان ينطق أصحابه بالضاد ، وظل يتربع عرش إمارة الشعر
العربي بقية حياته ، وحتى الآن لا يزال اسمه يدوّى في آذان العرب كأنه
ترانيل السّحر .

وَيُحْيِي إِلَى الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ لَشَوْقِي أَمْنِيَةٌ تَمْنَاهَا إِلَّا حَقَّقَهَا لَهُ الدَّهْرُ ،
حتى المغنى الذي كان يريده لشعره نثرت مصر كنانتها بين يديه ، ليختار
أروع صوت فيها ، يلحن له أغانيه ، فنذ سنة ١٩٢٤ أصبح محمد عبد الوهاب
يتبعه كظله في كرمته بالجيزة ، وفي رحلاته : في باريس ولبنان ودمشق .

وكانت حياته حينئذ نعيماً ومتاعاً خالصاً . ويكنى أن تقرأ ما سطره كاتبه
أحمد عبد الوهاب عن معيشته الحاملة منذ سنة ١٩٢٠ لثرى كيف كان يسير
في طرق مملوءة بالورود والرياحين ، وكيف كان يجلس في أجواء معطرة ،
وكيف كان يتناول الحياة كؤوساً صافية^(١) . فهو يدور في فلك من المرح
والحياة البهيجة التي لا يطمع شاعر في شيء وراءها ، إذ نراه يتنقل من مقهى
إلى مقهى ومن مطعم إلى مطعم ومن دار خيالة إلى دار خيالة ، ومن سهرة
إلى سهرة ، وكان جوه كله جو طرب وغناء . وحدّثني بعض من كانوا يزورون
أبناءه في كرمة الجيزة أنه كان بها غرف استقبال مختلفة ، وكان لكل غرفة
زهّ أرها ، وكل يوم تقدّم له كئوس الخمر، فهي كرمة حقيقية ، وكان عبد الوهاب

(١) انظر « اثني عشر عاماً في سحبة أمير الشعراء » ص ٨٩ وما بعدها .

لا يزال يغتنى في إحدى الحجرات . فإذا قلنا إن شوقى اجتمعت له زينة الحياة الدنيا لم تكن مغالين ، بل كنا محقين . وفي أثناء ذلك كان يختلط بالحياة المصرية العامة ، فينزل من سيارته ويتجول في الطرقات على غير هُدًى ، ويختلط بمجاميع من الأصدقاء في منزله وفي دور الصحف والنوادي ، ويلزم الشعب في مواسمه . ولم تكن خيانه من حياة الشعب ، ومع ذلك حاول جاهداً أن يشاركه في مشاعره ، وأن يحس معه بأفراحه وأتراحه .

ولعلنا لا نتجاوز الحق إذا قلنا إن حياة شوقى هذه الخاصة لم تكن ذات آثار بعيدة في شعره في أثناء هذه الدورة الأخيرة من حياته ، فإن من خصائص شوقى الأساسية أنه لا يشعر بنفسه شعوراً كاملاً في فنه ، وكأنه يحس دائماً أنه يعيش لغيره ، وقد بدأ حياته الفنية بإخضاعها للخديوى ومدائح ، وما زال حتى حقق أمنيته ، فعاش له حتى في غزله ووصفه للخمر ، إذ نراه يضعهما في مقدمات مدائحه ، ولا يفردهما بمقطوعات خاصة إلا نادراً ، فحتى شعره الشخصي لم يكن يفكر فيه لنفسه ، وإنما كان يفكر فيه لأميره . وفصلَ عن هذا الأمير وقصره ، ومع ذلك لم يعد إلى نفسه .

فشوقى ليس من الشعراء الأثيرين الذين تنطبع في شعرهم حياتهم الخاصة ، وإنما هو من الشعراء الغيريين إن صح هذا التعبير ، قد وهب فنه وشعره لا لنفسه وإنما لغيره . ولكن من يكون هذا الغير بعد الخديوى عباس لقد ظل بإسبانيا نحو خمس سنوات وهو في تيه من الحيرة ، لا يدري بمن يربط شعره ، ولذلك قلَّ شعره هناك قلة شديدة ، فلما رجع إلى مصر ، ووجد الشعب المصرى قد نهض من كبوته ، ونفض الغبار عن عينيه ، وبدأ خطأً مستقيماً لهضة مباركة ، أحسَّ أنه وجد القطب الذى يربط به نفسه ، فعاش في هذه الحقبة يختلط به في النوادي والأسواق ، ويحاول أن يعبر عن حياته ومشاعره .

وإذن فن الوجهة العامة احتفظ شوقى بعد رجوعه من المنفى بخصته الفنية المميزة له ، وهى أن يكون شاعر غيره ، كان شاعر عباس ، فأصبح شاعر الشعب المصرى ، بل شاعر الشعوب العربية كلها ، ينبض قلبه بأحلامها

وأماها وما تكون فيه من جهاد وثورات . أما نفسه فإنه لم يفرغ لها قديماً ولا حديثاً ، إذ كانت طبيعته الفنية تقتضيه دائماً أن يخضع لغيره في صنع شعره . وإذا كان أميره القديم عباس قد انتهى وانتهت دولته فليتخذ له أميراً جديداً هو شعبه ، بل ليتخذ له أمراء جديداً مختلفين ، هم شعوب العالم العربي . وأماؤه في هذه المرة لا يملثون حجراً ولا جسيماً ذهباً ، فهم لا يملكون الذهب ، وإنما يقدمون له حباً وعطفاً وقلوباً أغلى من الذهب وأثمن . ولعل هذا ما جعل شعره يفيض بالعاطفة ، فهو يبادل هذه الشعوب شعورها نحوه ، ويعمد إلى قيثارته فيتغنّى مجدداً القديم ، ويصور آمالها في حياة حرة كريمة .

وكل ذلك بعث فيه نزعة ديمقراطية ، ولا نشك في أن أغانيه التي صدح بها عبد الوهاب جزء من هذه النزعة ، فهو فيها لا يغنى نفسه ، وإنما يغنى شعبه ، ولعله من أجل ذلك نزل عن أسلوبه العربي الفصيح ليغنى أميره المصري الجديد ، إذ الشعب إنما يألف لغته العامية البسيطة السهلة ، وإذن فليبسط له حتى ينال كل ما يريد من استحسانه ، وحتى يقع من هواه الموقع الذي يصبو إليه . ونجح شوقي فجرت أغانيه لا على لسان عبد الوهاب وحده ، بل أيضاً على لسان كل مصري ، في القصر وفي الكوخ ، وشدّاً بها الرجال والنساء والأطفال .

ونظر شوقي فوجد وراء القمة التي انتهى إليها قمة لم يُعْنِ بالارتفاع إليها العناية التي تستحقها ، فحاول بكل قوته وكل ما تملك أجنحته من قدرة أن يبلغها ، ونفخت في روحه ربة الشعر ، فإذا هو يبلغ القمة البعيدة ، ويظفر بحلمه الذهبي الذي فكر فيه في أثناء شبابه ، حين ألف رواية «على بك الكبير» ، ثم تركها وكأنه أحس إخفاقاً . ولم يكن هذا الحلم سوى رواياته التمثيلية التي دوت في سمع العالم العربي ، تلك الروايات التي أثبت فيها أن شعرنا لا يتخلف عن الشعر الغربي ، وأن شعراءه يستطيعون أن يجاروا شعراء التمثيل في أوروبا .

ونفس هذه الروايات التمثيلية ألّفها شوقي لشعبه والشعوب العربية ، فمنها ما يستمد موضوعه من التاريخ المصري والحياة المصرية ، ومنها ما يستمد موضوعه

من التاريخ العربي والحياة العربية . ولم يكن للأدباء والنقاد في سنتيه الأخيرتين من حياته حديثٌ سواها ، فهي التي استولت على نشاطهم ومقالاتهم ، وهي التي نالت حين مُثِّلت نجاحاً منقطع النظير . وكان شوقى ينعم بذلك وبأنه حمل راية التجديد بين الشعراء ، فلم يعد شعره نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة ، بل أصبح شخوصاً تُرَى بالعين المجردة على خشبة المسرح .

ومن الغريب أن الأمراض كانت قد اصطلحت عليه في هاتين السنتين الأخيرتين ، ويحدثنا كاتبه أنه كان يعكف معه على قراءة القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي ، وكان يُعجب خاصة بالغزالي ومؤلفاته والخبزقي وتاريخه . ولا بد أن نشير هنا إلى سماحة نفسه ، وبشر وجهه ، فقد كان ضحوك المحيياً ، خفيف الروح ، وكان يعجب بالذكور محجوب ثابت ، وله معه فكاهات مبهوثة في شوقياته .

وأخيراً حول الساعة الثانية في ليلة ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٢ كفَّ البلبل عن شلوه ، فقد سقطت قيثارة الشعر من يده ، ولَبَّتْ روحه نداء ربه . وارتفع النواح والنشيج في مصر والأقطار العربية ، وخرجت الأمة المصرية الكريمة تشيِّع شاعرها بقلب ملهوف وعين جارية . وانبرى الكتاب والشعراء في مصر والشرق العربي يرثون الشاعر ويعزون الوطن في هذا العلم الذي طوى إلى الأبد. وندبته الصحف العربية ندباً حاراً. ومن أجل ما قيل في رثائه قصيدة بشارة الخورى، وهو يفتتحها بقوله:

قَفَّ فِي رَبِيِّ الْخُلْدِ وَاهْتَفَّ بِاسْمِ شَاعِرِهِ فِسِدْرَةٌ الْمُنْتَهَى أَدْنَى مَنَابِرِهِ
وَأَمْسَحَ جَبِينِكَ بِالرُّكْنِ الَّذِي أَنْبَلَجَتْ أَشْعَةُ الْوَحْيِ شِعْرًا مِنْ مَنَابِرِهِ
إِلَهَةُ الشَّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ وَرَبَّةُ النَّثْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَاسِرِهِ
وَالْحَوْرُ قَصَّتْ سُذُورًا مِنْ غَدَائِرِهَا وَأَرْسَلَتْهَا بَدِيلًا مِنْ سَنَائِرِهِ

ومن بديع ما نُظِمَ في رثائه قصيدة صديقه خليل مطران ، وقد صور فيها تصويراً رائعاً لوعة مصر والعالم العربي فيه ، وتحدثت عن نبوغه ، فقال :

يجلُّو نبوغك كلَّ يومٍ آيةً	عذراء من آياته الغراء
كالشمس ما آبت أنت بمُجددٍ	متنوعٍ من زينةٍ وضياء
هبةً بها ضنَّ الزمان فلم تُتَح	إلا لأفذاذٍ من الثُّبغاء
يأتون في الفتراتِ بُوعِدَ بينها	لِتَهَيُّوا الأسبابَ في الأثناء
كالأنبياء ومن تَأَثَّرَ إثرهم	من عِلْيَةِ العلماء والحكماء
من مُسْعِدِي في وَصْفِها أو مُصْعِدِي	درجاتِ تلك العزَّة القَعَساء
ماذا دهاني اليوم حتى لا أرى	إلا مكانَ تفجُّعي وبكائي

واستمرَّ يتحدث في بيانه وبلاغته ، ومثله في صورة حبيبة ناطقة بالنيل ، فهو نيل مصر الثاني ، نهلت منه وستظل تنهل كلما تقدمت بها السنون ، وإنه لنيل حقاً إذ فاض من الأعلى ، من بيئته الأرستقراطية ، واقتحم كل الحواجز التي اعترضته في عمره الطويل ، وما زال حتى ارتقى بسيوله في محيط الموت ، واستقرَّ بين أمواجه .